تراث الإنسانية

مستقبل العلم

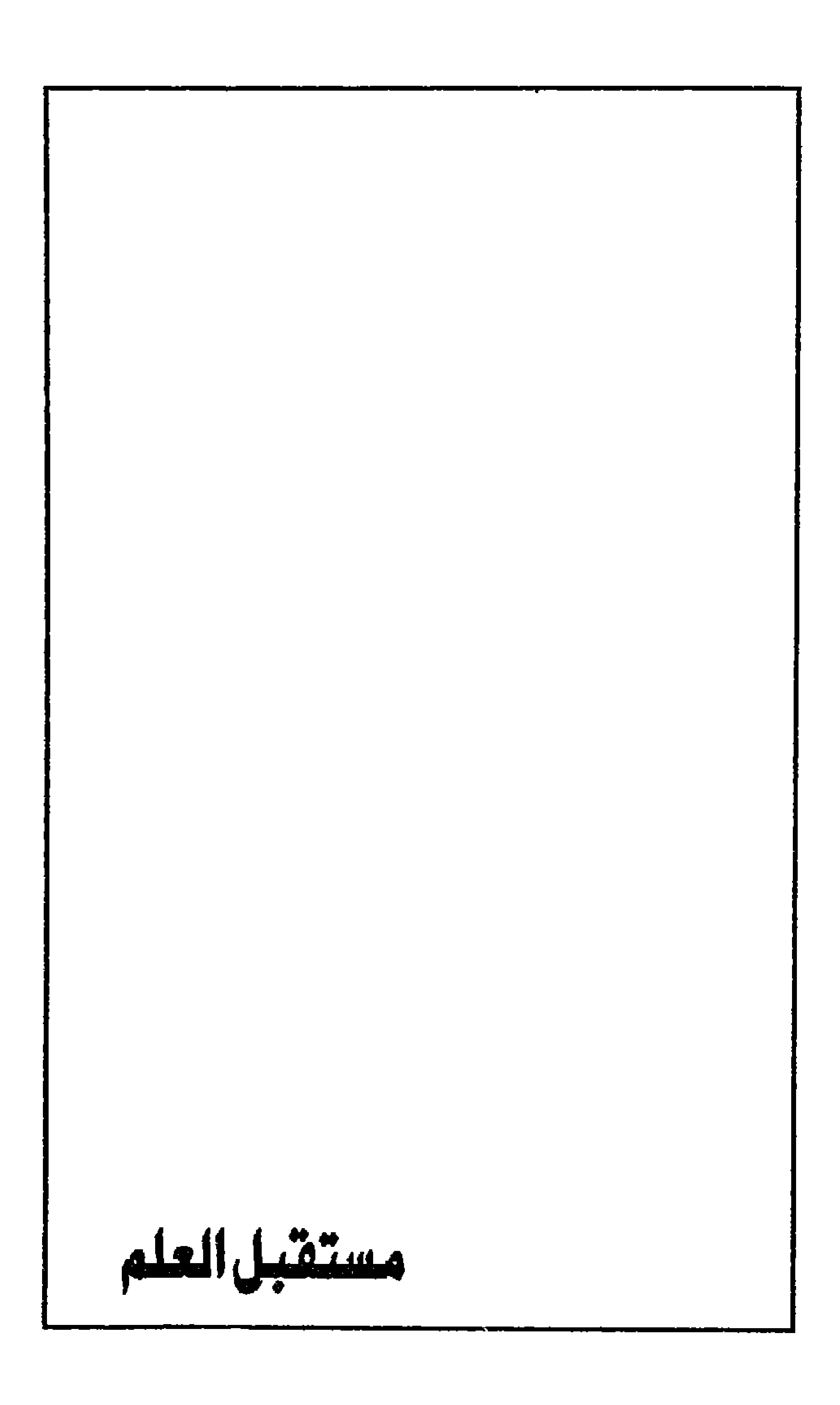
لأرنست رينان



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

على ادهم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤


مستقبل العلم

مستقبل العلم

لأرنست رينان

على أدهم



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الاعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعي والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

مستقبل العلم لإرنست رينان

علي أدهم

حياة رينان ومؤلفاته

كان إرنست رينان أحد كبار ممثلي الثقافة الفرنسية المعدودين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو بوجه عام في طليعة المؤرخين الذين لمع اسمهم في ذلك القرن، قال عنه الناقد الفرنسي المعروف جيل ليمتر في أحد فصوله الأدبية «لم يشغل كاتب من الكتاب أكثر معاصريه تشددا وأصعبهم إرضاء ويغشي أخيلتهم ويزعجهم ويسرهم مثل رينان، وسواء خضعنا لجاذبيته أو قاومناها فإنه لم يستول أحد على تفكيرنا استيلاءه ولم يتمكن من نفوسنا تمكنه». وكان من المعاصرين الذين عناهم الناقد الكبير بهذا القول أمثال أناتول فرانس وبول بورجيه وإميل فاجيه وغيرهم ممن صارت لهم الصدارة في الأدب الفرنسي.

وإسم رينان الذى كان كثيرا ما يرد على الألسنة فى مطالع هذا القرن وأشار إليه الشاعر حافظ إبراهيم فى رثائه للشيخ محمد عبده منوها بمواقفه فى الدفاع عن الإسلام بقوله:

وقفت لها نوتو ورينان وقفة

أمدتك فيها الروح بالنفحات

أقول إن هذا الاسم أصبح الآن لا يذكر كثيرا ولعل السبب فى ذلك أن تأثير رينان قد بلغ مداه، ومهما يكن من أمره فان مؤلفاته التاريخية وفصوله الأدبية والفلسفية لا تزال محتفظة بقيمتها الفنية، ولا يزال قراؤها يجدون فيها المتعة والفائدة برغم ما استهدفت له من مراجعة ونقد.

وإرنست رينان مثل شاتوبريان ولامنيه من مقاطعة بريتانى البلتية، وقد ولد فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٣ ببلدة تريجييه وهى ثغر صغير على مقربة من القنال الإنجليزى، وأغلب الظن أن أجداده نزحوا إلى بريتانى من مقاطعة ويلز فى الهجرة الكبرى خلال القرن الخامس الميلادى، وكان أحد هؤلاء المهاجرين القديس رينان (وأصل اسمه رونان) وهو قديس مشهور فى

بريتاني، وقد نشأ في بيئة شديدة التدين إلى حد الإيمان بالخرافات والأساطير الشائعة عن القديسين، وكان أبوه من صغار التجار ولكنه كان كذلك ملاحا مثل أكثر سكان بلدته ويملك سفينة والمنزل المتواضع الذى ولد به إرنست، وكانت زوجته تدير الحانوت الذى كان فيه إلى جانب أصناف البقالة مستلزمات رجال البحر ونسائهم، وكان من خصائص سكان بريتانى تلك المثالية التى تغرى باحتقار الثروة لأنها فى أغلب الأوقات تجمع بطرق غير شريفة ويصحبها فى العادة العجز فى ممارسة التجارة وسائر الشؤون الدنيوية، وكانت أسرته تقاسي شدة الفقر وضيق العيش، ولكن والدته كانت مطبوعة على التفاؤل والاستبشار ويجرى فى عروقها الدم الغسقونى، وأهل غاسقونيا مرحون متفائلون، على خلاف أهل بريتانى فإنهم ميالون إلى الحزن والاكتئاب، وكان رينان يعزو التناقض الواضح فى سلوكه إلى وراثته لهذين المزاجين المختلفين، ومن أقواله فى هذا الصدد «لى طبيعة مزدوجة فشطر من نفسى ضاحك على حين يبكى الشطر الآخر، وكأنما فى إهابى رجلان أحدهما مصمم دائما على أن يكون راضيا قانعا» ويقول كذلك «لقد استأثر العامل الغسقونى بالشطر

الأكبر من نفسى» وربما صدق هذا عن رينان فى المرحلة الأخيرة من حياته حيث كان يبدو دائما باسما متفائلا لا يشكو ولا يتسخط بل يواجه الحوادث فى ثقة واطمئنان، أما فى صدر حياته فيبدو أن العنصر البريتانى كان له من نفسه النصيب الأوفى.

وبلغ بؤس الأسرة غايته حينما فقدت عائلها ورينان طفل فى الخامسة من عمره، ففى ليلة ليلاء وهو عائد إلى سفينته الراسية على الشاطىء غرق فى البحر، وقد دعت الظروف التى أحاطت بموته إلى أن يظن بعض الناس أنه مات منتحرا، وأعرض الدائنون عن الاستيلاء على المنزل والحانوت حينما تعهدت لهم أخته هنرييت بسداد ديون أبيها، وكانت هنرييت فتاة قوية العزيمة فى الخامسة عشرة من عمرها، وقد نهضت بأعباء الأسرة وأنشأت مدرسة فى تريجييه لتعليم البنات، وكانت تخص شقيقها إرنست بعنايتها وتوجهه فى دراسته وتعينه من الناحية المادية، وقد تلقت دروسا فى الفرنسية واللاتينية على يدى إحدى الراهبات.

وكان إرنست طفلا ذكيا حالما تعلم القراءة وكاد يحفظ قصة تليماك عن ظهر قلب، وفى الثامنة من عمره ألحق بمدرسة لاهوتية فى بلدته، وكانت أخته وأحد القساوسة يتعاونان فى دفع المصروفات المدرسية، ولكن سرعان ما أراحهما من ذلك بحصوله على منحة دراسية صغيرة، وكان معلموه قساوسة محترمين ظل يحمل لهم فى نفسه أطيب الذكريات حتى بعد خروجه على معتقداتهم ووقوفه على ما فى تعليمهم الدنيوى من وجوه النقص ونواحى الضعف، وقد علموه اللاتينية على الطريقة القديمة من كتب عقيمة سيئة التأليف كما كانت تدرس فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، وأتقن العلوم الرياضية،وكانوا لا يسمحون للطلبة بقراءة الشعر الفرنسى المعاصر حتى كتب شاتوبريان ولامارتين ويمنعونهم كذلك من قراءة التاريخ الحديث، وحينما حدثت ثورة سنة ١٨٣٠ كانت معلومات رينان عن نابليون وعهد الإمبراطورية لا تتجاوز ما سمعه من بواب المدرسة، وقد حدثنا عنهم رينان قائلا فى ذكرياته «تعلمت من أساتذتى شيئا أعظم قيمة بكثير من النقد أو البراعة الفلسفية، لقد علمونى حب الحق واحترام العقل وجدية الحياة، وهذا هو ما ظل ثابتا فى نفسى دون أن

يعتريه أى تغيير، ولقد خرجت من بين أيديهم وفى نفسى شعور أخلاقى قمين بأن يثبت لكل أمتحان كالجوهر الذى لا تزول لمعته إذا تناولته يد غير صناع، فلم تستطع خفة الرأس الباريسية أن تنال منى، ولقد صيغت نفسى للخير والحق بحيث أصبح من المستحيل أن أسلك فى حياتى سلوكا غير موقوف على الأشياء الروحية، ولقد جعلنى أساتذتى غير صالح لأى وظيفة دنيوية إلى حد أننى صرت مطبوعا على الحياة الروحية دون أن أستطيع أى معدى عنها، وظهر لى أن هذه الحياة هى وحدها الحياة النبيلة، وكل مهنة تدر الربح بدت لى حقيرة غير لائقة بى».

وكان أكثر زملائه وأترابه فى تلك المدرسة من أبناء المزارعين المتطلعين إلى وظائف القساوسة، وكانوا يمتازون بقوتهم الجسدية، وكان رينان غلاما مجدا مثابرا على الدرس رقيق البنية جم الحياء، فأطمأن إلى زميلته الفتاة نعومى وكانت تكبره بعامين، وعقد معها صداقة وقد وصفها وصفا شائقا فى ذكريات طفولته، وقد ماتت فى ريعان شبابها وظلت ذكراها ناضرة فى نفسه، ولما صار أبا سمى باسمها ابنته الوحيدة، ولم تكن فكرة الحب والزواج من الأفكار التى تشغل بال من

نوى أن يهب حياته للكنيسة والترهب، ومن أقواله عن نفسه «لقد ولدت قسيسا»، وقد ظل رينان فى الواقع قسيسا ولكن فى محراب الفكر والتأليف لا فى الكنائس، وقد ظل تأثير رجال الدين قويا فى نفسه حتى بعد أن خالفهم فى آرائهم ونقد مذهبهم، وقد قال واصفا نفسه فى تلك الفترة «كانت كل كلمة من كلمات أساتذتى تبدو لى كأنها وحى، وبلغ من احترامى لهم أنى كنت لا أشك مطلقا فى أى كلمة من كلماتهم حتى بلغت السادسة عشرة وقدمت فى باريس».

وكان يمضى أكثر وقته فى كاتدرائية تريجييه بين أروقتها وأضرحة الفرسان القدامى، وقد وصف فى ذكريات طفولته تلك البيئة الدينية التى قضى بها طفولته وسمع الكثير من الخرافات عن كرامات الأولياء والقديسين، وأنمت فى نفسه هذه القصص المروية حب الميثولوجيا والقدرة على الموازنة بين أساطير الأمم المختلفة.

ووقعت حادثة لولاها لعاش رينان بوصفه قسيسا غامض الشأن مجهول المكانة فى إحدى الإبرشيات أو لما صار أكثر من أستاذ فى معهد تريجييه، وهذه

الحادثة هي اختيار الأب ديبانلوب ـ الذي اشتهر بعد ذلك أسقفا لأورليانز ـ للإشراف على معهد القديس نيقولا، وطور ديبانلوب الدراسة في هذا المعهد، وأدخل فيه الدراسة الكلاسيكية والأدبية للذين ينزعون إلى أن يكونوا قساوسة، ورأى أن تكون الدراسة بالمعهد أوسع من أن تقتصر على المسائل الدينية والاعداد للانتظام في سلك الكنيسة، فأقبل على المعهد كثيرون من أبناء الطبقة العالية الموسرة والطبقة المتوسطة الذين كان آباؤهم يريدون لهم أن يتلقوا دراسة كلاسيكية أدبية دينية عالية دون أن يكون قصدهم الحاقهم بسلك رجال الدين، ونجحت الخطة التي وضعها الأب ديبانلوب أكثر مما قدر واشتد الاقبال على المعهد، وشجع ذلك النجاح بعض الآباء المياسير على أن يدفعوا ثمنا عاليا للظفر بمزايا هذا المعهد، وساعد ذلك على تعليم أبناء الطبقة الفقيرة الذين كانوا يريدون الانتظام في سلك رجال الدين، وروعي في اختيار هؤلاء أن يكونوا من الشبان المجتهدين الواعدين، ولتحقيق هذه الغاية أوفد الأب ديبانلوب رجالا من قبله إلى مختلف أنحاء فرنسا، ونترك رينان يذكر لنا بقية القصة «في سنة ١٨٣٨ حدث أنني ظفرت بجميع الجوائز التي كانت مخصصة

لفرقتي في كلية تريجييه، واتفق أن اطلع على قائمة الجوائز أحد هؤلاء الرجال الذين أرسلهم القائد المتحمس (يقصد الأب ديبانلوب) ليجمعوا جنودا لجيشه الصغير، وفي لحظة واحدة بت في أمرى، وكانت سنى حينذاك لا تتجاوز الخامسة عشرة وستة أشهر، ولم يكن هناك وقت للتفكير، ففي اليوم الرابع من شهر سبتمبر كنت أقضى إجازتي مع صديق لي في قرية قريبة من تريجييه، واستدعيت بعد الظهر على عجل، ولا أزال أذكر عودتي إلى المنزل كأنها كانت بالأمس، وكان أمامي مسيرة فرسخ في طريق ريفى، وكانت أجراس صلاة التبشير المسائية المتنقل رنينها من إبريشية إلى إبريشية تشيع في الجو شيئا من الهدوء والعذوبة والحزن يصور الحياة التي كنت سأغادرها ولا أعود إليها أبدا، وفي اليوم التالي بدأت السفر إلى باريس، وفي اليوم السابع رأيت أشياء جديدة لا عهد لي بها كأنني قد قذف بي إلى فرنسا من تاهيتي أو تيمبكتو».

وظل يدرس في هذا المعهد سبع سنوات ليكون من زمرة الإكليروس، ويصفه لنا أحد زملائه في الدراسة بهذا المعهد قائلا «كان يبدو شاحب الوجه سقيما وكان جسمه النحيل يعلوه رأس ضخم، وكانت عيناه دائما

مخفوضتين ولا يرفعهما إلا ليلقي نظرة جانبية، وكان شديد الحياء إلى الحد الذى لا يجعله خفيف الحركة حسن التصرف في مواجهة المواقف المختلفة ويتركه مستغرقا في التفكير حتى يكاد يبدو بكيما وكأنه كان يشعر بأنه عبء على نفسه».

وقد آلمه فراق بلدته وانتقاله من التلال الخضر والحقول الفيح إلى سجن المعهد فى شارع سانت فيكتور والنظام الصارم السائد فيه، وكان يتسلى بكتابة الرسائل إلى والدته وساءت حالته الصحية والنفسية، وكان الأساتذة فى المعهد يقرأون الرسائل التى يكتبها الطلبة قبل إرسالها، وتركت إحدى الرسائل التى كتبها رينان إلى والدته يبثها شوقه إليها وفرط حزنه لمفارقتها أثرا قويا فى نفس أستاذه الذى قرأها، فأطلع عليها الأب ديبانلاب الذى أعجب بالرسالة، ويقول رينان «من ذلك الحين استرعيت نظره وأصبحت موجودا فى عالمه وكان لى كما كان لسائر الطلبة مبدأ حياة وأسمى قدوة». وسرعان ما زالت آلامه النفسية وفارق حنينه إلى بلدته وأقبل على دراسته فى حماسة وإهتمام، فدرس اللاتينية واليونانيةوالتاريخ القديم والوسيط والحديث، وكان المعهد يعنى عناية خاصة بدراسة الكتاب

الفرنسيين الكلاسيكيين مثل بوسويه وفينيلون، وكان الخلاف بين أنصار الأدب الرومانتيكى والأدب الكلاسيكى محتدما فى تلك الفترة فى فرنسا، وكان هذا من الموضوعات التى تناولها كثيرا الأب ديبانلوب فى المحاضرات المسائية التى كان يلقيها على طلبة المعهد، وظهر فى أثناء دراسته بهذا المعهد ميله الشديد إلى التاريخ، ويقول رينان عن نظام التعليم الذى اتبعه الأب ديبانلوب «كنت تستطيع أن تقول إن هؤلاء المائتى طالب قد قدر لهم أن يكونوا شعراء ومؤلفين وخطباء».

وحينما ترك رينان معهد القديس نيقولا كان قد حدث فى نفسه تغير كبير، وقد وصف لنا حالته فى قوله «لمدة ثلاث سنوات خضعت لتأثير عميق أحدث تحولا كاملا فى كيانى، وأصدق القول أن الأب ديبانلوب غير منى، وأخرج من الريفى الصغير الفقير القابع فى قوقعته خامل الشأن عقلا ناشطا سريع الإدراك، وحقيقة أن هذا اللون من ألوان التعليم كان ينقصه شىء كلما وطنت نفسى على أحتماله شعر عقلى على الدوام بفراغ، فقد كان ينقص هذا التعليم العلم الوضعى وفكرة البحث الناقد عن الحق، فهذه الدراسة الإنسانية السطحية لمدث ثلاث سنوات فرضت الجمود على قدرتى

العقلية، وفي الوقت نفسه قضت في نفسي على بساطة الإيمان، وبدأت مسيحيتي تذوى وتتضاءل، ولكن برغم ذلك لم يعرض لفكرى ما أستطيع أن أسميه شكا، وكنت في كل سنة أذهب إلى بريتاني لقضاء أيام العطلة الدراسية، وإذا تجاوزت عن بعض ضروب القلق التي كانت تنتابني فاني كنت لا أزال كما صنعني وكونني المدرسون الأوائل الذين علموني على الأقل من ناحية الدين».

وبانتهاء دراسته في معهد القديس نيقولا وقف رينان في مفترق الطرق، وكثيرون من الطلبة زملائه آثروا أن يتجهوا دنيويا، وصمم فريق آخر من الطلبة على أن يستمروا في دراسة إكليروسية لينتظموا في سلك رجال الدين، وكان رينان من هؤلاء الطلبة.

وكان لمعهد القديس سلبيس الذي التحق به رينان ليعد نفسه الإعداد اللازم لرجال الدين فرع في إيسي القريبة من باريس، وفي هذا الفرع كان الطلبة يتلقون دراسة فلسفية مدة سنتين قبل أن يدرسوا دراسة لاهوتية في المعهد الرئيسي في باريس، وكان الطلبة في إيسي يتمتعون بنصيب أوفر من الحرية، ولم يسيئوا

استعمال الحرية الممنوحة لهم، وكان أساتذة ذلك المعهد يحرمون المنافسة بين الطلبة فى حزم وإصرار ويشجعونهم على التواضع الفكرى وضبط النفس، ويدرسون لهم مذهب ديكارت فى صورة مخففة وآراء توماس ريد والمدرسة الإسكتلندية، ويلقون عليهم محاضرات فى العلوم الطبيعية والتاريخ الطبيعى وعلم وظائف الأعضاء، ومال رينان فى هذه الفترة إلى قراءة بسكال ومالبرانش ولوك، وأقبل على الدراسة في شوق شديد ونهم ملحوظ، ولم يستفد مرة واحدة من السماح له بزيارة باريس لرغبته في التوفر على الدراسة، وقد لخص لنا ثمرة دراساته وتأملاته فى قوله «لم يخدعنى حبى الشديد للفلسفة عن تقدير أن نتائجها ليست محققة، وسرعان ما فقدت الثقة جميعها ببحوث ما وراء الطبيعة المجردة التى تدعى أنها علم قائم وراء العلوم الأخرى كلها وأنها تستطيع أن تعالج وحدها أسمى مشكلات الإنسانية، وأساس طبيعتى الروح العلمية..، وقد تلقيت من أساتذتى فى بريتانى دراسة فى الرياضة جيدة عميقة، والرياضيات والاستقراء الطبيعى كانت دائما العناصر الأساسية فى تفكيرى وهى وحدها أحجار بنائى العقلى الذى لم يتغير وضعه وعليه

اعتمادى، وما عرفته عن التاريخ الطبيعى العام والفيزياء أهلنى لمعرفة قوانين الحياة، وقد أدركت عدم كفاية ما يسمى المذهب الروحانى، وبراهين ديكارت على وجود روح منفصلة عن الجسد كانت تبدو لى دائما جد ضعيفة، ومن ذلك الحين غدوت مثاليا روحانيا بالمعنى المألوف للكلمة، وبدا لى أن الاضطرام الأبدى والاستحالات التى لا نهاية لها هى قانون العالم،ورأيت الطبيعة كلا شاملا لا محل فيه للخلق الخاص ومن ثم كان كل شىء فى طريق التحول، فكيف لم يزل من نفسى هذا التصور الوضعى للفلسفة النزعة المدرسية والمسيحية؟ لقد كان السبب فى ذلك أننى كنت لا أزال غض الشباب متناقضا تنقصنى الروح الانتقادية، وقد ثنانى عن الانطلاق أمثلة لكثيرين من ذوى العقول الكبيرة والنظر العميق إلى الطبيعة الذين ظلوا برغم ذلك مسيحيين، وفكرت قبل كل شىء فى ملبرانش الذى ظل طوال حياته يحتفل بالقداس وفى الوقت نفسه ان يستمسك بآراء عن علاقة العناية الإلهية بالدنيا ويعبر عنها وهى آراء تختلف عن آرائى اختلافا قليلا.. وحقيقة أنى لا أستطيع أن أقول إن عقيدتى المسيحية كانت فى الواقع قد أصابها الوهن، والذى هدم عقيدتى

هو النقد التاريخى لا النزعة المدرسية ولا الفلسفية، وتاريخ الفلسفة والشكوكية التى هاجمتنى ثبتا قدمى فى المسيحية ولم يبعثا فى نفسى النفور منها، ونوع خاص من التواضع كف منى، ولم تعترضنى وتفرض نفسها على مسألة المسائل وهى حقيقة العقائد المسيحية والكتاب المقدس، وكنت أسلم بوجه عام بالوحى مثل ليبنتز ومالبرانش، وحقيقة أن فلسفتى القائمة على الاعتقاد بالاضطرام كانت مخالفة المخالفة كلها للتعاليم الدينية، ولكن لم أسر بها إلى نتائجها، وبعد كل شىء كان أساتذتى راضين عنى».

وكان رينان يبدو لأساتذته الصالحين الأتقياء طالبا مجدا رضى الأخلاق ذكى الفؤاد، وكان ما يؤخذ عليه هو شدة اقباله على الدراسة قد يجعله غير صالح للقيام بواجباته بوصفه من رجال الدين، ولم يخالج أساتذته أى شك فيما كان يدور بفكره ويعتمل فى نفسه خلال هذه المرحلة من مراحل حياته حتى استبان لأحد هؤلاء المدرسين فجأة ـ وكان من أحدبهم نظرا ـ أثر ذلك الصراع الداخلى القائم فى نفس رينان، فمن مزايا الحرية التى كانت ممنوحة لطلبة المعهد أنهم كانوا يستطيعون مناقشة الموضوعات الدينية التى تطرح على

بساط البحث في كل يوم من أيام الآحاد، وفى إحدى هذه المناقشات ظهر الطالب الصامت الرزين بمظهر المعارض الذى لا تلين قناته ولا يتراجع عن موقفه، وراع هذا الموقف أستاذه الحصيف، وبدت إجاباته عن الاعتراضات التي واجهه بها رينان ضعيفة واهية إلى حد جعل الطلبة يسخرون منها، واضطر الأستاذ إلى إنهاء المناقشة، وفى المساء انتحى الأستاذ برينان في إحدى نواحى المعهد وذكر له أن الأعتماد على أحكام العقل وحده مخالف للمسيحية، ولام الطالب على شدة عنايته بالدرس قائلا له « ما فائدة هذا البحث الدائم عن الحق، إن كل ما هو جوهرى وهام قد عرف، وليست المعرفة هى التى تنقذ أرواحنا» ويضيف رينان أنه أضاف إلى ذلك قوله ـ وقد ظهر عليه الانفعال الشديد ـ «إنك لست مسيحيا!» وكان لقوله هذا وقع الصاعقة فى نفس رينان الحساسة، فظل طوال الليل يردد لنفسه هذه الكلمة، وفى اليوم التالى أفضى بما فى نفسه لعميد معهد إيسي»، وكان من رجال الإكليروس المحبوبين الدمثى الأخلاق العاطفين على رينان، فهون عليه الأمر، ولم تعجبه كلمة الأستاذ الذى عذب ضمير رينان وآلم نفسه، وكان من رأيه أن تلك الشكوك التى تعرض

للشبان لا أهمية لها ما داموا لا يصرون عليها وأنها تختفي حينما يزاولون القيام بواجبات وظيفتهم الدينية.

وبعد أن أتم رينان عامين في معهد إيسى استقر الرأى على أنتقاله إلى المعهد الرئيسى فى باريس، وهو معهد القديس سلبيس، ليستكمل دراسته اللاهوتية، ولم يجد أساتذته فى ذلك المعهد ما يؤخذ على رينان من ناحية عقيدته أو من ناحية سلوكه بوجه عام، وكان مثابراً على القيام بواجباته الدينية، ولكن الشكوك برغم ذلك كانت تساوره ولكن كان عجزه عن التوفيق بين الآراء التى انتهى إليها عن الكون والإنسان وبين العقيدة الدينية يشغل باله ويثير خواطره، وقبل حلاقة شعر الرأس وسائر الأوامر المحتملة التى لا تفرض عليه العزوبة أو تدفع به إلى صميم وظيفة القس، وحينما طلب منه أن يدخل فى سلك مساعدى الشمامسة ويتعهد بالتزام العزوبة أحجم عن ذلك ولم يستجب لضغط عميد المعهد، وأسفر ذلك كله عن قطع علاقته بالمعهد مما أثار تعجب أساتذته وحزنهم.

وكانت العبرية باعتبارها لغة كتب العهد القديم تدرس فى معهد القديس سلبيس، وكان عميد المعهد

يلقى محاضرات عن اللغة العبرية، وكان الذى يقوم بتدريس الأجرومية العبرية أستاذ عالم باللغات السامية وهو الأستاذ ليهير، وكان رينان الذى قال عن نفسه إنه ولد لغوياً كما ولد قسيساً من أشد طلبته إقبالا على محاضراته وأكثرهم اجتهاداً، ولما أمسك عميد المعهد عن إلقاء المحاضرات بسبب تقدم سنه وحل محله ليهير اختار رينان لتعليم الطلبة دروس الأجرومية العبرية، وقويت العلاقة بينه وبين ليهير، وقد علم ليهير رينان العربية والسريانية، وكان ليهير قد أطلع على التفسيرات الحديثة للكتاب المقدس التى قام بها الباحثون الألمانيون، وكان كثير من هذه التفسيرات لا يرضى رجال الدين المسيحى، ووسعت هذه الدراسات نطاق معلومات ليهير ولكنها لم تؤثر فى عقيدته إذ كان يأخذ منهاما يراه ملائماً لمذهبه الكاثوليكى وينبذ ما عداه، وكان من الطبيعى أن يطلع ليهير تلميذه المجد على تلك التفاسير التى كان فى مكتبته منها عدد وفير، ولكن معرفة اللغة الألمانية كانت لازمة لمن رام مثل هذا الاطلاع، ولذلك أقبل رينان على دراسة اللغة الألمانية حتى أتقنها وشرع فى قراءة تلك التفسيرات الألمانية، وكشفت له هذه الدراسة آفاقاً فكرية جديدة، وأعجب

أيما إعجاب بالتفكير الألماني، ووجد فيه ما كان يريده وهو التوفيق بين الدين والروح الانتقادية، وعجل ذلك اقتراب الأزمة في خريف سنة ١٨٤٥، وقضى رينان أيام عطلته كسابق عادته في تريجييه مع والدته المحبوبة التى أحزنهاما خالج نفسها من الشكوك حول ما كان يدور في نفس ولدها الذى كانت تحرص على أن يصبح يوما من رجال الدين، وأعرض عن لقاء أساتذته القدامى فى تريجييه لأنه قدر الصعوبات التى لابد أن تعترض أحاديثه معهم، ولحظوا هم كذلك التغير الذى طرأ عليه.

وكانت شقيقته هنرييت بعد أن غادرت تريجييه قد قامت بالتدريس في إحدى مدارس باريس، وقبلت بعد ذلك أن تكون مربية فى إحدى الأسر البولندية، وزارت مع تلميذتها ألمانيا غير مرة، وأعجبت بالتفكير الألماني، ولذلك قدرت التحول الذى حدث فى تفكير أخيها بعد أطلاعه على آراء مفكرى الألمان، وشجعته على مواجهة الأزمة، ولكى تضمن له الإقامة في البلاد التى اعجب بأدبها وفلسفتها اذا ما أقدم على ترك الالتحاق بالسلك الإكليروسى حصلت له على وظيفة مرب فى ألمانيا، ولكن هذه الوظيفة لم تقبل، وفى أثناء إقامته القصيرة الأخيرة بتريجييه في خريف سنة ١٨٤٥ وجد أنه أصبح لا يطيق

الانتظام فى السلك الإكليروسى وكان أشد ما يخشاه هو ما سيحدثه ذلك من الألم فى نفس والدته التى كانت خلاصة آمالها فى الحياة أن يصبح ابنها من رجال طائفة الإكليروس، وقد كتب رينان من رسالة لأحد أصدقائه فى تلك الفترة يقول إنى مستعد أن أضحى من أجلها بكل شىء سوى واجبى وضميرى، ولو طلب منى الله لكى أجنبها الألم أن أخمد فى نفسى قوة التفكير وأن أحكم على نفسى بأن أعيش ساذجا جاهلا لوافقت على ذلك، ولكن هل فى قدرة الإنسان أن يعتقد أو لا يعتقد؟ لوددت أن أكون قادرا على أن أكبت فى نفسى الملكة التى ترغمنى على البحث، فهذه الملكة هى علة شقائى، وسعداء هؤلاء الذين رزقوا روح الأطفال فهم طوال حياتهم لا يفعلون شيئا سوى أن يناموا ويحلموا! وأرى حولى رجالا أتقياء بسطاء كانت الديانة المسيحية كافية لجعلهم صالحين سعداء، ولكنى لحظت أنهم مجردون من ملكة النقد، فليشكروا الله على ذلك».

وكان عليه أن يبت نهائيا فى مسألة الاستمرار فى السلك الكهنوتى أو تركه إلى الأبد عند عودته من الإجازة القصيرة، لكن إذا ترك السلك الكهنوتى فماذا يفعل وهو غير صالح للحياة العملية؟ ولما عاد إلى معهد

القديس سلبيس أخبر أنه عين فى إحدى المؤسسات الكرملية التى أنشأها رئيس أساقفة باريس، فرفض قبول التعيين ووجد أنه لا مفر من المصارحة بما فى نفسه، وقابل الأب ديبانلوب وذكر له الشكوك التى خالجته، وأدرك الرجل أن رينان لم يعد صالحا للانتظام فى سلك الإكليروس، ولكنه مع ذلك لم يقس عليه وترفق به، وعرض عليه المساعدة المالية، فرفض رينان وشكره على ذلك.

وهكذا خلع رينان الثوب الكهنوتى وصار خليفة فولتير فى نقد تاريخ الديانة اليهودية والدين المسيحى، ولكن سلوكه كان يختلف عن سلوك فولتير، ومرد ذلك إلى أختلاف طبيعة الرجلين، وقد ظل رينان إلى النهاية متأثرا بالآداب المسيحية، وقبل أن يكون مدرسا باحدى المدارس الداخلية بالحى اللاتينى، وكان التدريس لا يستغرق سوى ساعتين من وقته، ولذلك وجد متسعا من الوقت لمتابعة دراساته دون أن يندب حظه أو يشكو حزنه! وعمل على مداواة الجرح الذى خلفه فى نفس والدته تركه للسلك الكهنوتى، وأقنعها بأنه لا يزال ابنها الصالح الذى يحبها يعطف عليها، وشد عزمه فى هذه الأزمة مواساة شقيقته له، وعرف فى المدرسة الداخلية

مارسلان برتلو وكان رينان يكبره بسبع سنوات، وتوثقت بينهما علاقات الصداقة، وكان برتلو مقبلا على الدراسة العلمية دون أى غرض آخر، وقد أعجب رينان بهذه النزاهة العلمية وكان كل منهما معنيا بالبحوث التى يعالجها الآخر، قال رينان «بعد الأشهر الأولى من سنة ١٨٤٦ أصبح النظر العلمى الخالص للكون الذى يرى أنه ليس هناك إرادة أسمى من إرادة الإنسان تعمل بطريقة جديرة بأى تقدير هو المرساة التى لم تبتعد عنها قط» وكان حب أخته له وصداقة برتلو هما الضوء الذى ينير له سبل الحياة فى جهاده الشاق ومثابرته المستمرة على الدرس والتحصيل، وأخذ يستعد لنيل الإجازات الجامعية وليزيد معرفته باللغات وبخاصة اللغات السامية، وأمعن فى القراءة وتوسع فى الاطلاع باحثا عن أصول الديانة اليهودية والديانة المسيحية، وكان يرى أن الديانة المسيحية قد انبعثت من الديانة اليهودية، ولما كانت اللغة العبرية هى لغة أسفار العهد القديم لذلك كان للتبحر فى اللغات السامية جاذبية شديدة تجذب رينان إليها، ومن ناحية أخرى كان رينان يرى فى تاريخ اللغات تاريخ عقل الإنسان وأن علم مقارنة اللغات له أهمية فلسفية بالغة، وكانت

أول جوائز علمية لها قيمتها حصل عليها رينان فى مجال البحوث اللغوية، فى سنة ١٨٤٧ نال جائزة فولنى إذ كتب أوفى فصل فى اللغة قدمه المتسابقون، وكان هذا الفصل نواة كتابه الذى أصدره فيما بعد عن تاريخ اللغات السامية، وما أظهره فى هذا الفصل من القدرة أكد الصداقة بينه وبين العالم اللغوى الفرنسى الشهير يوجين بيرنوف أستاذ اللغة السنسكريتية فى الكوليج دى فرانس والحجة الثبت فى اللغات الشرقية، وقد هدى رينان إلى معرفته الأدب الهندى القديم وديانات الهند وأساطيرها وفتح له ذلك عالما جديدا من عوالم الفكر والخيال.

والحوادث الثورية التي وقعت سنة ١٨٤٨ تركت فى نفس رينان أثرها وأثارت اهتمامه بالمسائل السياسية والحركات الاجتماعية، وشغل خلال هذه السنة بكتابة بحث عن تاريخ دراسة اللغة اليونانية فى غرب أوروبا من نهاية القرن الخامس الميلادى إلى القرن الرابع عشر ليتقدم به إلى مسابقة اقترحتها أكاديمية الفنون والآداب ولما أتم هذا البحث شرع فى الخريف فى الاستعداد للتقدم فى امتحان مسابقة الفلسفة ونال جائزة أكاديمية الفنون والآداب كما جاء

ترتيبه الأول فى امتحان الفلسفة.

وبدأ فى تلك السنة اتصاله بالمجلات الدورية فكتب فى مجلة «الفكر الحر» وكانت أولى مقالاته عن أصول اللغات، والحوادث الدامية التى وقعت فى أعقاب ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ بفرنسا، والفوضى السياسية، والاجتماعية والفكرية التى شملت البلاد بعثت رينان على إعمال الفكر وإطالة التأمل فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٨٤٨ وأوائل سنة ١٨٤٩ وكانت ثمرة هذا التفكير والتأمل الكتاب الذى ضمنه جماع أرائه فى فلسفة الحياة ونظراته إلى الماضى والحاضر والمستقبل وذخائر اطلاعه الواسع وعلمه الغزير، وفى يوليو سنة ١٨٤٩ نشر فصلا فى مجلة الفكر الحر عن الحركة الفكرية بفرنسا فى سنة ١٨٤٩ وأعلن محرر المجلة أن هذا الفصل أحد فصول كتاب «مستقبل العلم» الذى سيظهر بعد أيام قلائل، ولكن ظهور هذا الكتاب تأخر إلى سنة ١٨٩٠ أى أنه ظل محتفظا به فى درج مكتبه مدة أربعين سنة بعد الاعلان عن قرب ظهوره، ولم يدخل عليه أى تغيير أو تعديل، والكتاب حافل بالآراء الموحية فى شتى الموضوعات التى تهم البشر مشفوعة بأمثلة من مختلف الآداب العالمية فى جميع العصور على وجه

التقريب، وقد يعجب الإنسان كيف استطاع شاب فى السادسة والعشرين من عمره أن يكتب مثل هذا الكتاب الحافل، وقد ظلت الفلسفة التى بسطها فى هذا الكتاب فلسفته طوال حياته وقد أوضح فى هذا الكتاب أن إصلاح المجتمع لا يكون عن طريق توزيع الثروة توزيعا متساويا وإنما يكون عن طريق نشر الثقافة الفكرية والأخلاقية، ولم يخلق الإنسان للمتعة الأرضية، وعلينا أن نهيء الظروف التى تبدو فيها الثروة شيئا قليل القيمة ثانويا وتصبح الثقافة دينا يفى بكل حاجات الإنسان المشروعة، ولكن إذا أصبح الناس جميعهم فلاسفة فمن الذى يقوم بالأعمال العادية اليومية الدنيوية؟ لا مناص فى هذه الحالة من إلحاق الأعمال اليدوية بالفلسفة والثقافة الفكرية، ولقد كان الفيلسوف اسبنوزا يصقل زجاج النظارات وروبرت بيرنز الشاعر الأسكتلندى الكبير كان يتغنى بالشعر وهو يسير وراء المحراث، والذى يصلح العالم هو العلم أى المعرفة فى أوسع معانى الكلمة، ولقد ضعف تأثير الأديان، وديانة العلم تحبونا بالكثير مما قصر عنه باع المعتقدات القديمة، ويعزز رأيه قائلا «فى طفولتى ومطلع شبابى ذقت حلاوة الإيمان وعرفت مباهج الاعتقاد ولكن مثل

هذه المسرات - وأقول ذلك من أعماق روحى - ليست بشىء إلى جانب ما شعرت به من الابتهاج فى تأمل الجميل والبحث المتحمس عن الحق.

ومن الفصول الهامة التى نشرها فى مجلة الفكر الحر الفصل الذى كتبه عن مؤرخى حياة السيد المسيح الانتقاديين، وكان هذا الفصل الخطوة الأولى نحو تأليف كتابه الذائع الصيت عن «حياة المسيح» وقد بين فى هذا الفصل تأثر البحاثة الألمانى ستراوس فى كتابه عن المسيح بآراء الفيلسوف هيجل، وكانت نظرية ستراوس قائمة على أن معظم الحوادث المروية فى الأناجيل خرافات تكونت فى العقل اليهودى عما سيكون عليه المسيح أو المخلص المنتظر وما سيفعله، ولكن رينان يرفض هذه النظرية، ويرى أن حالة العقلية اليهودية عند ميلاد المسيح لا تقرها، ويفرق بين الظروف التى يسمح فيها بتطبيق المذاهب الخرافية والظروف التى لا يسمح فيها بذلك، وهو يفضل المذهب الأسطورى القائم على الاعتقاد بأن هناك نواة من الحقيقة نسجت حولها الأساطير، وقد استرعت كثير من الفصول التى كتبها رينان الأنظار، وكان من هؤلاء الذين أعجبوا ببحوثه ودراساته العلامة فيكتور ليكلارك، وكان من أثر تزكيته

له أن عهدت أكاديمية الفنون إلى رينان ورفيق له بمهمة البحث فى المكتبات العامة ومكتبات الأديار فى إيطاليا عن مخطوطات غير مطبوعة سريانية إو عربية، وقضى معظم سنة ١٨٥٠ فى إيطاليا وأمضى بعد ذلك بضعة أشهر فى إنجلترا، وما أظهره من البراعة فى التقارير التى كتبها إلى وزير التعليم عن تلك المكتبات جعله يعجب به ويقدر علمه بالمخطوطات الشرقية، وساعد ذلك على اختياره لوظيفة فى قسم المخطوطات الشرقية بالمكتبة القومية.

ولكى يحصل على الدكتوراه فى الآداب ويستكمل تكوينه الجامعى كان عليه أن يقدم أطروحتين إحداهما باللاتينية والأخرى بالفرنسية،،وقد جمع لكليهما المواد اللازمة فى أثناء إقامته فى الخارج، وطبعت الأطروحتان سنة ١٨٥٢ وظفر بلقب دكتور، وكان موضوع الأطروحة الأولى رأيه الذى اشتهر به وهو أن معرفة العرب فى العصر الوسيط لفلسفة أرسطو كانت جميعها مستمدة من الترجمات السريانية، وكان موضوع الأطروحة الثانية ابن رشد والرشدية، وقد وطدت هذه الأطروحة مكانة رينان بين المستشرقين، وعنده أن ابن رشد أضاف إلى ما استمده من الترجمات العربية لأرسطو

المنقولة عن السريانية آراء جديدة من عنده، وأوجد مدرسة من مدارس الفكر التقدمية أثرت مدة قرون فى التفكير الأوروبى تأثير شديدا، ودل ذلك على تعمقه فى دراسة فلسفة العصر الوسيط وسعة إطلاعه وتنوع معلوماته.

وأقام بعد عودته من هذه البعثة مع أخته هنرييت فى مسكن صغير بباريس، وكان يقضى جزءا من النهار فى المكتبة القومية ويوقف أمسياته جميعها على البحث والدراسة، وكانت تستغرق دراسته فى أغلب الأوقات ساعات كثيرة من الليل وقد وفرت له أخته أسباب الراحة وكفته مؤونة احتمال الأعباء المنزلية، وكانت علاوة على ذلك تراجع ما يكتب، وقد نصحته بتحرى سهولة الأسلوب وبساطته، وأن يحد من ميله إلى السخرية، وزاره فى عليته الناشر المعروف كالمن ليفى واتفق معه على طبع كتاب ابن رشد وما يؤلفه من الكتب بعد ذلك، ولم يكن رينان يتوهم حتى ذلك الحين أنه يستطيع الحصول على مال من التأليف، ولقى كتابه عن ابن رشد رواجا ملحوظا.

وقد أطلع صديقه أوغسطين تيرى على كتابه عن مستقبل العلم فنهاه عن تقديمه للطبع ووافقه على ذلك سلفيتر دى ساسى ابن المستشرق الكبير وأشارا عليه بموالاة الكتابة فى الجورنال دى ديبا ومجلة العالمين ونشر أجزاء من كتاب مستقبل العلم فيهما لأن جمهرة القراء الفرنسيين لا تستطيع استساغة الكتاب برمته، وعمل رينان بنصيحتهما.

ورأى رينان أن المرتب الذى يتقاضاه من المكتبة القومية مضافا إليه دخله من الكتابة فى الأدب يكفى للزواج، ووقع اختياره على بنت أخى المصور آرى شيفر، وكان موفقا فى زواجه وظلت أخته هنرييت معه حتى وفاتها.

وفى سنة ١٨٥٥ ظهر كتابه عن التاريخ العام للغات السامية وحاز إعجاب علماء اللغات وتقديرهم، وقد بسط فيه رينان رأيه فى أن الاختلاف بين الشعوب الهندية الأوروبية أو الآريين وبين الساميين ليس مقصورا على اللغة والأرومة فحسب، وإنما يصحبه اختلاف أساسى فى طريقة النظر إلى الكون، فالشعوب السامية طبيعتها موحدة، والشعوب الآرية تميل إلى

تعدد الآلهة، وقد الهت قوى الطبيعة من بادىء أمرها، فى حين أن الساميين فرقوا بين الله والكون، والديانات الثلاث الموحدة وهى اليهوية والمسيحية والإسلام سامية الأصل، ولم يدن أحد من الأرومة الآرية بأله واحد إلا عن طريق الساميين ولم يصل الساميون إلى التوحيد عن طريق التفكير وإنما استجابوا فيه لنداء القلب، ولكنهم من ناحية أخرى ليس عندهم فلسفة ولا علم ولا أساطير ولا شعر إبيقى، والملكات التى تنتج الأساطير هى التى تنتج الفلسفة، والهند وبلاد اليونان أخرجتا خير الأساطير وأعمق الأنساق الفلسفية، وشعر الساميين شعر ذاتى وهم ينقصهم الخيال الخلاق، والشعر الإبيقى وهو من ثمرات الميثولوجيا والدراما غير معروفين عندهم، وفى التأليف الروائى لم يأتوا بشىء أكثر من الحكايات ذوات المغزى، وعقيدة التوحيد جعلت التصوير والنحت من الأشياء المكروهة، ولم يبتدع الساميون نظما سياسية عظيمة كما فعل الرومان واليونان، ولم يوجدوا إمبراطورية عظيمة منظمة مثل الفرس، والمجتمع عند الساميين لا يخرج عن نطاق الخيمة والقبيلة، وموجز القول إن خصائصهم سلبية، ولكن خاصتهم الإيجابية العظيمة ترجح سائر

الخصائص وتعوضهم عما بهم من نقص، فالبشر مدينون للساميين بالتوحيد، وهو دين له قيمة لا تقدر، ولكن هذه الآراء الرينانية واجهت اعتراضات كثيرة، وقد دافع رينان عنها بعد أن أدخل عليها بعض التعديل وفى الفترة من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٦٠ شغل رينان بكتابة فصول فى موضوعات شتى للديبا ومجلة العالمين، وقد أبعدت شهرته وزادت فى عدد قرائه، وكان أسلوبه يمتاز بالرشاقة والصفاء والمرونة والوضوح، وترجم سفر أيوب وترانيم سليمان وقدم لكل منهما بحثا وافيا.

وفى سنة ١٨٦٠ أوفدت الحكومة الإمبراطورية رينان ليكشف آثار فينيقيا القديمة ويبحث عن مخطوطات، وشاهد فى هذه الرحلة الأراضى المقدسة، وصحبته فى رحلته أخته هنرييت وزوجته، ولما اضطرت زوجته إلى العودة إلى فرنسا ظلت أخته معه، وبدأ رينان يكتب كتابه عن حياة المسيح، وكانت أخته تنصت له فى عطف وإعجاب وهو يقرأ عليها الفصول التى كتبها، وقبل استعدادهما للعودة إلى فرنسا أصيبا بالحمى، ولما أفاق رينان من غيبوبته بعد اثنتين وثلاثين ساعة كانت أخته قد أصبحت جثة هامدة، وستظل ذكراها

ناضرة عطرة فى الإهداء المؤثر الذى صدر به كتابه عن حياة المسيح، وعاد إلى فرنسا وحيدا موجع القلب ومعه أصول كتاب حياة المسيح.

وفى سنة ١٨٦٢ عين رينان أستاذا للغات السامية بالكوليج دى فرانس، وأزعجت أولى محاضراته رجال الدين فى فرنسا، وبعد إلقائها بأربعة أيام منع رينان بأمر من السلطات من الاستمرار فى إلقاء المحاضرات. وتلقى رينان هذا المنع بهدوئه الفلسفى، ودعا طلبة فرقته بالكوليج دى فرانس إلى الحضور لداره ليلقى عليهم الدروس التى منع من إلقائها فى الكلية، وقبل ذلك الطلبة وظل سنوات يلقى عليهم الدروس فى منزله.

وأتم رينان كتابه عن حياة المسيح وظهر الكتاب سنة ١٨٦٣ وظهرت فى الكتاب قدرة رينان البحاثة العالم وبراعة رينان الشاعر الفنان، واستفاد فى تأليف الكتاب من مشاهدته البلاد التى عاش فى جوها السيد المسيح وتنقل فى أرجائها، ولقى الكتاب اقبالا ورواجا ولكنه أغضب رجال الدين، فسعوا سعيهم عند الإمبراطور نابليون الثالث الذى كان يعتمد على تأييدهم لسياسته حتى حرم رينان من كرسيه الجامعى، واقترح

وزير المعارف تعيين رينان فى وظيفة مساعد مدير قسم المخطوطات فى المكتبة الإمبراطورية للإفادة من علمه، ولكن رينان رفض قبول هذه الوظيفة، ونفعه فى هذه الأزمة رواج كتاب حياة المسيح، وقد شجع رينان هذا الرواج على أن يمضى فى تأليف الجزء الثانى من كتاب «أصول المسيحية» وكان الجزء الأول هو كتاب حياة المسيح، وحوالى نهاية سنة ١٨٦٤ سافر رينان إلى الشرق وقد حرص على زيارة فلسطين قبل شروعه فى كتابة الجزء الثانى الذى كان سيتناول حياة الرسل لأن واحدا منهم أو أثنين زارا فلسطين، وحاول رينان فى كتابه أن يصور الأمكنة والناس كما كانت فى عهد بولس الرسول، وظهر كتاب «الرسل» سنة ١٨٦٦ وظهر الجزء الثالث سنة ١٨٦٩ وقد تناول فيه حياة القديس بولس، وقد أشار رينان فى مقدمة كتاب «الرسل» إلى ما وجه إلى كتابه عن حياة المسيح من نقد، وكان بعض النقاد قد اتهموا رينان بأنه كان يرمى من وراء كتابه إلى هدم العقيدة فقال إنه تلقى رسائل كثيرة سأله مرسلوها عما قصده بكتابه وكان رده أن قصده كان الغاية التى يرومها كل مؤرخ وهى كشف الحقيقة وجعلها تعيش والعمل على جعل حوادث الماضى ذوات

الشأن حية معروفة بقدر ما نستطيع من الدقة، وأن نعرضها عرضا جديرا بها وأن هز أركان عقيدة أحد من الناس لم يكن قط من أهدافه بل إنه يأسف أشد الأسف إذا كان نشر بعض الحقائق يؤدى إلى ذلك.

وتوالت الحوادث بفرنسا ونشبت الحرب السبعينية وفى نهاية إبريل سنة ١٨٧١ سئم رينان الحالة في باريس وتركها إلى فرساى، وهناك كتب محاوراته الفلسفية، ولم يقدمها للطبع إلا بعد ذلك بخمس سنوات، وفى سنة ١٨٧٣ ظهر كتابه «ضد المسيح» وهو الجزء الرابع من تاريخ نشأة المسيحية، وقد زار رينان روما قبل أن يشرع فى تأليفه، وفى الكتاب وصف بارع لشخصية نيرون وسلوكه وتفصيلات رهيبة عن فظائعه، وبعد أن أتم رينان كتابة الجزء الخامس من تاريخ نشأة المسيحية أراد أن يجعل محاوراته الفلسفية في صورة دراماتيكية بحيث تصبح صالحة لأن تمثل على «مسرح فلسفى» إذا كان ذلك ميسورا فكتب أربع تمثيليات فلسفية وهى كاليبان وماء الشباب وكاهن نيمى ورئيسة ديرجوار.

وقد أعلن في مقدمة كاليبان أن الفلسفة بلغت مرحلة معرفة أننا لا نستطيع أن نؤكد شيئا، وفي سنة ١٨٧٨ اختير رينان عضوا بالأكاديمية الفرنسية خلفا للعالم الطبيعي الكبير كلود برنار وفي السنة التالية ترجم سفر الجامعة إلى اللغة الفرنسية، وكتب ذكريات طفولته التي ظهرت سنة ١٨٨٣ وقضى رينان السنوات الأخيرة من حياته في تأليف كتابه عن تاريخ بني إسرائيل، وقد تم في خمسة أجزاء ظهر الجزءان الأخيران منهما بعد وفاته وكان يعاني آلام المرض في سنواته الأخيرة وهو مشغول بتأليف هذا الكتاب، وعرف في أول سنة ١٨٩٢ أن حالته الصحية تبعث على اليأس، وعاني من مرضه آلاما مبرحة احتملها صابرا متجلدا، ولم يفقد في خلال ذلك رقة أخلاقه وعطفه على من كانوا حوله، وقال إنه لا يخاف الموت لأنه قانون الطبيعة وعلينا أن نستسلم له صابرين، وقضى نحبه في يوم ٢أكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وقد عاش رينان حياة نقية خالية من الشوائئ عاملة مجدة حياة عالم متفان في العلم والبحث، ومع ذلك كان سباقا إلى معالجة مشكلات عصره العقلية والسياسية، وكان يدلي برأيه في صراحة وشجاعة في الموضوعات الدينية وغير الدينية، وقد أثار

عداوات شديدة، ولكنه لم يرد على أحد ممن كانوا يوجهون إليه الطعن، ومع صدق وطنيته لم يتملق أمته ولم يخدعها بالمغالاة بقيمتها، وبعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية لم يركن إلى الانحاء على الجد العاثر وإنما عمل على أن يوضح لأمته أخطاءها ويبصرها بأوجه النقص فى تقديرها للأمور، وعمل دائما على النهوض بالثقافة، قال عنه صديقه البريطاني جرانت داف «الذى يعرف عنه أى شىء يعلم أن سلوكه من مولده إلى وفاته كان سلوك قديس ـ وهو قديس قد يكره الناس أراءه ولكن حتى إذا حكمنا عليه بتعاليم بحيرة الجليل فإنه مع ذلك لا يزال قديسا» وهو مؤرخا يحاول أن يقدم لنا صورة واضحة لما يصفه، وتقديرا نزيها للشخصية التى يتحدث عنها.

كتاب مستقبل العلم

حاول رينان فى هذا الكتاب الذى بدأ تأليفه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره أن يقول كل شىء ولا يترك شيئا، وقد سجل فيه الأفكار التى كونها وصحبته طوال حياته، وكان من الحين إلى الحين يستمد من معين هذه الأفكار ويرجع إليها، ففى هذا الكتاب جرثومة كل

ما فكر فيه وكل ما نوى تأليفه، فهو قصة حياته الفكرية وصحيفة اعترافاته وبرنامج حياته، وسجل أحلام شبابه وأمانيه وذكرياته، وقد كتبه وهو يؤمن بأن العلم سينقذ الإنسانية، وبأن العصر الذى يسود فيه العقل ويصل فيه الإنسان إلى الكمال المنشود آت وعنده أن العلم فى أوسع معانيه هو تنظيم المعرفة جميعها على أختلاف ألوانها، ويروى لنا رينان أنه دفع إلى هذا الاعتقاد حينما وجد فى فبراير سنة ١٨٤٨ طريقه إلى درس ألسنسكرستى مسدودا بالمتاريس التى أقامها الثوار، ويقول رينان فى ذلك «فى ذلك اليوم سألت نفسى باهتمام أكثر مما ألفت هل هناك شيء خير من أن يهب الإنسان كل لحظة من حياته للدراسة والفكر، وبعد أن استشرت ضميرى وأكدت إيمانى بالعقل الإنسانى أجبت فى تصميم «لا».

وكان اعتقاد رينان أن أنقاذ الجماهير من الاستغلال الاقتصادى وتوفير أوقات الفراغ لها يمهدان لها سبيل الاستفادة من ثمرات الفكر، فليس هناك سعادة إلا إذا تساوت الناس جميعهم، ولكن المساواة لا تجيء إلا إذا بلغوا جميعا مرتبة الكمال، ومما يحزن الأديب النحرير أو المفكر الكبير أو العالم المتمكن أن

يرى نفسه فى عزلة عن المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه بسبب امتيازه وتفوقه.

ولأجل أن يستغل الإنسان إمكانياته كلها عليه أن يعرف الطبيعة ويدرس نفسه، والعلم يعلم الإنسان أن يسيطر على البيئة وينحى عنه المخاوف، وما زلنا متخلفين في ذلك الفن الصعب فن معرفة الطبيعة الإنسانية، ولما كانت الإنسانية فى خلال أدوار حياتها قد مرت باستحالات كثيرة لذلك يرى رينان أن للتاريخ أهمية خاصة في الكشف عن الطبيعة الإنسانية، وكما أن علم اللغات معناه تاريخ اللغات وعلم الأدب والدين معناه تاريخ عقل الإنسان، وإذا اقتصرنا على تفهم عصر واحد واكتفينا بذلك ولم نتجاوزه كونا فكرة خاطئة عن طبيعة الإنسان، وتاريخ الإنسانية هو تاريخ التربية الإنسانية، وهو يبدأ بفعل الإنسان البدائى الذى يتمثل فى الأديان القديمة، ففى كتب الأقوام البدائيين المقدسة تتمثل روحهم القومية وأشعارهم وأخلاقهم وآدابهم وفلسفتهم وعلمهم، ولم يمكن اقتفاء آثار تقدم العقل الإنسانى إلا فى العصر الحديث، لأن لغات الأمم وآدابها لم تدرس بعناية وتقرأ بفهم وبصيرة إلا فى العصر الحديث، وكان القدماء لا يعرفون سوى اللغة

التى يتحدثون بها ولم يجربوا ما يكفى من الثورات الأدبية والاستحالات الفكرية، ومن ثم لم يكن فى استطاعتهم أن يصلوا إلى علم مقارنة اللغات أو استخلاص مبادىء النقد الجمالى، وقد ظهر علم مقارنة الآداب في أواخر القرن الثامن عشر بعد أن حدثت ثورة في الذوق الأدبى وقبول فكرة النسبية فى الذوق شجع على الأخذ بالتقدير النسبى لحالات الحضارة، وأكد رينان أهمية ما قدمه الباحثون أمثال فيكو وهردر ونبيور وجيكوب جريم وميللر وشاتوبريان وسكوت وتيرى وميلشيه وغيرهم فى هذا الصدد.

وتقتضى معرفة تاريخ العقل البشرى الانغماس فى دراسة الأدب، ففى الأدب تظهر قوانين العقل البشرى بصورة غير مباشرة، على خلاف الحال فى علوم الطبيعة، والموهبة اللازمة هنا هى ملكة الناقد الأدبى المرهف الحس، والذين رزقوا شفوف الحس ودقته ولطافته هم المزودون لإدراك الحق فى العلوم التاريخية والعلوم الأدبية كما أن الذين أوتوا موهبة التفكير المحكم المضبوط يصلون إلى الحق فى العلوم الرياضية، على أن شفوف الحس ورهافة الذوق لابد أن يقترنا بالمعرفة الواسعة والاطلاع الغزير والتفكير

العميق، فالمؤرخ الحق المستكمل الأداة يعرف كيف يختبر الوثائق ويستخرج ما له قيمة من بحوث الآخرين، والجمع بين المعرفة الشاملة المحكمة والتقدير الدقيق هو الفلسفة باصدق معانيها وليست الفلسفة علما قائما بذاته، إنها جانب من العلوم كلها.

ويرى رينان أن الخطوة الأولى لمن يهب حياته للحكمة أو الذى يتطلع إليها هى أن يقسم حياته قسمين، أحدهما للحياة العادية المكونة من حاجات الوجود المادى والآخر هو القسم المثالى الذى ينشد الحق والخير والجمال، وهذا هو التعارض القديم بين الجسد والروح الذى عرفته الأديان والأنساق الفلسفية، وعند رينان أن هذا ليس ازدواجا فى تكوين الإنسان وإنما هما طريقان مفتوحان أمام الإنسان، والتفريق بينهما يقتضى التسليم بأن الحياة الأسمى المثالية هى كل شيء، وأن الحياة الأدنى التى تقضى فى متابعة المسرات والجرى وراء المتعة لا تثبت أمام الحياة المثالية كما يتراجع المحدود بازاء اللامحدود، وإذا كانت الحكمة العملية تأمرنا بأن نفكر فيها فما ذلك إلا من أجل الحياة المثالية وكشرط من شروطها، ويضيق رينان بهؤلاء الذين لا يأخذون الحياة مأخذ الجد، وإذا كانت

الحياة ليست سوى سلسلة حقائق ليس لها قيمة أسمى ولا دلالة عليا فان التفكير الجدى يسوقنا إلى نبذها، والحياة الفكرية ومحاولة تحقيق الجمال وبلوغ الكمال بقدر ما يستطيع كل إنسان هى الشىء المرغوب فيه وما عداها باطل، وكل ما هو متصل بحياة الإنسان الأسمى التى تميزه عن الحيوان مقدس وجدير باهتمام ذوى العقول الراجحة والشعور الجميل يعادل الفكرة الجيدة، والفكرة الجيدة توازى العمل الصالح، والنسق الفلسفى يعادل الشعر وقيمة الشعر تساوى قيمة الكشف العلمى، والحياة التى تقضى فى متابعة العلم حياة قيمة كالحياة التى تقضى فى ممارسة الفضيلة، والإنسان الكامل هو الذى يكون شاعرا وفيلسوفا وعالما ورجلا فاضلا، وهو لا يكون كذلك من الحين إلى الحين وإنما يكون كذلك فى كل لحظة من لحظات حياته فيكون شاعرا فى الوقت نفسه الذى يكون فيه فيلسوفا وفيلسوفا فى الوقت نفسه الذى يكون فيه عالما، وبالاختصار تمتزج فيه كل عناصر الإنسانية فى اتساق جميل كما فى الإنسانية نفسها، ويعيب رينان على عصره أنه كان لا يسمح بتوفر مثل هذه الوحدة لأن الحياة أصبحت فيه حرفة، فالإنسان مرغم على أن يتخذ

لقب الشاعر أو الفنان أو العالم وأن يخلق لنفسه عالما صغيرا يعيش فيه غير عالم بما يتجاوز حدود هذا العالم الضيق المحدود، بل ربما أنكر وجود كل ما تجاوز عالمه، ولا ينكر رينان أن هذا حكم الضرورة، ولكنه يصر على أنه مناقض للكرامة الإنسانية وإكتمال الفردية، والهدف النهائى للإنسان ليس هو أن يعرف ويشعر ويتخيل وإنما هو أن يصير كاملا أى إنسانا بكل معنى الكلمة، وأن يمثل فى طرازه الفردى صورة موجزة للإنسانية الكاملة، وأن يظهر فى وحدة قوية جميع المظاهر التى رسمتها الحياة فى العصور المختلفة والأمكنة المتباينة، والإنسان كثيرا ما يظن أن الأخلاق والأخلاق وحدها هى الكمال، وأن نشدان الحق والجمال ليس أكثر من متعة، وأن الرجل المستقيم الأخلاق هو الرجل الكامل، وأنموذج الكمال تقدمه لنا الإنسانية نفسها، وأكمل حياة هى الحياة التى تمثل لنا الإنسانية برمتها، والإنسانية المثقفة ليست معنية بالأخلاق فحسب وإنما تعنى كذلك بالمعرفة والبحث وتحريك المشاعر وإشعال الحماسة.

وليس فى مستطاع أى إنسان أن يضرب بسهم فى كل ناحية من نواحى الثقافة، والذى يجيد التصوير

بريشته قد لا يجيد العزف على الآلة الموسيقية، ولا يحسن استعمال الأجهزة العلمية، فكل فرع من فروع العلم وكل فن من الفنون فى حاجة إلى تربية خاصة وإعداد معين، ولكن الذى يمكن أن يحدث فى صورة من الثقافة الفكرية أكثر تقدما هو توفر العاطفة التى يستلهمها الشاعر فى قرض الشعر ويستعين بها الفيلسوف فى نفاذ نظراته والعالم فى وثبات خواطره، ومثل هذه العاطفة تميل إلى الخير والحق والجمال.

ويروى رينان قصة الرجل الذى قال لأحد الفلاسفة القدامى إنه يظن أنه لم يولد ليكون فيلسوفا، فأجابه الفيلسوف قائلا «أيها البائس السيىء الحظ ما الذى تظن إذن أنك ولدت من أجله؟» ولو كان المقصود هنا بالفلسفة دراسة بضع مسائل معينة تتفاوت أهميتها لكان جواب الفيلسوف ضربا من السخف، ولكن إذا فهمنا الفلسفة على حقيقتها فان الرجل الذى لا يكون فيلسوفا هو الرجل الذى عجز عن إدراك المعنى الاسمى للحياة وهو من غير شك رجل بائس، وإذا كان معنى أن يكون الإنسان شاعرا هو مجرد القدرة على استعمال الألفاظ وسوق الأخيلة فان الكثيرين سيتنازلون برغبتهم عن لقب الشاعر، ولكن إذا فهمنا أن الشعر هو روح

ملكة التأثر بجمال الأشياء فان الذى ليس بشاعر يعد في هذه الحالة ليس بانسان، وإذا كانت هناك أمثلة تقدم لتوضح ذلك فان أمامنا حياة العبقريين، فحياة العبقرى يتمثل فيها دائما اجتماع القوى الفكرية العظيمة والمشاعر الشاعرية العالية، والشعر والفلسفة والفن والعلم ليست سوى طرائق مختلفة فى النظر إلى الشىء نفسه، وهذا الشىء هو الوجود فى مختلف مظاهره، ولذلك ليس هناك فيلسوف كبير ألا وهو فى الوقت نفسه شاعر، والفنان العظيم حظه من الفلسفة أكثر من هؤلاء الذين يحملون لقب فيلسوف، ولقد وجد بيرانجييه وسيلة ليقول كل ما يريد فى قالب أغانيه الشعرية، وغيره قد يضمن ما يريد أن يقوله القالب الروائى أو يصوغه فى صورة تاريخ، والعبقرية عالمية.

ولقد كان القدماء ينظرون إلى محاولة الإنسان كشف اسرار الوجود كأنها محاولة منطوية على تحد للآلهة، وكان العلم فى رأيهم نوعا من أنواع الخروج عن الطاعة الواجبة، وأسطورة بروميتياس ليس لها سوى معنى كراهة الآلهة لمحاولة معرفة أسرار الوجود التى تحرص الآلهة على أن تكون هى وحدها المنفردة بمعرفتها وكثير من الأساطير تدور حول هذا الموضوع،

وكانت محاولة تحسين أحوال الإنسان تعد مصدرا للشر ودليلا على التمرد.

وينظر العلم دائما من ناحية فوائده العملية وقيمه فى توطيد الحضارة، والمجتمع الحديث مدين للعلم بكل ما فيه من وسائل التقدم وهذا حق، ولكن وضع المسألة بهذه الصورة فيه خطورة، فالعلم كالفضيلة قيمته فى ذاته بغض النظر عن فوائده، والتطبيقات العملية للعلم لها قيمتها وأهميتها، ولكنها ليس لها قيمة مثالية، ولا يرضى رينان كذلك أن يكون الغرض من دراسة التاريخ مجرد الرغبة فى استنباط الحكمة العملية أو تلقى دروس فى الأخلاق، كما أنه لا يقر رأى القائلين بأن الغرض من فن الدراما هو معالجة أهواء النفس وشفاؤها من النزوات الجامحة، وهو لذلك يرى أن فلسفة الإنجليز وعلمهم ينقصهما السمو، ويستثنى من الإنجليز بيرون ويقول عنه إنه أدرك فلسفة الأشياء، ورينان يسير فى تقديره لبيرون سيرة أكثر النقاد فى خارج الجزر البريطانية، فنقاد الإنجليز لم يرفعوا بيرون إلى المستوى الذى وضعه فيه النقاد الأوربيون من غير الإنجليز، ويمكن أن نتبين خلال كتاب رينان عن مستقبل العلم أنه يحاول أن ينزه العلم من الغرض ويضفى عليه

نوعا من القداسة، لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى فكرة إحلال العلم محل الدين، وعند رينان أن الذى يواجه اللانهائى دون أن يدرك أن الكون حافل بالأسرار والغرائب والمشكلات لا يمكن أن يكون إلا إنسانا متخلف العقل ضعيف الإدراك.

ويرى رينان أنه من مبتذل القول أن نقول إن العالم تحكمه الأفكار، ومع ذلك فإن هذا ما يجب أن يكون لا ما كان فى الواقع، ففى التاريخ لا مفر لنا من التسليم بأن القوة والنزوة وما يمكن أن نسميه الصدفة قد لعبت أدوارها، والفلسفة فى نقائها وبساطتها ندر أن يكون لها تأثير مباشر فى التقدم الإنسانى ولم يحدث ذلك حتى القرن الثامن عشر، والأقرب إلى الحق أن نقول إن ملابسات العصر هى التى تخلق العصر، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن الإنسانية برغم تذبذب سيرها والعقبات القائمة فى طريقها تتدرج فى معارج الكمال، وأن فى أستطاعتها أن تغلب حكم العقل شيئا فشيئا على النزوات والغرائز، ولا فائدة من الجدل مع الذى ينكر أن التاريخ ليس مجرد ثورات بلا هدف أو حركات بغير نتائج، ولا يستطيع الإنسان أن يثبت سير الإنسانية فى طريق التقدم لمن لم يحاول إدراك ذلك،

والإنسانية بعد أن كانت تخبط خبط عشواء وهى تلتمس طريقها فى ظلمات الجهل مدة قرون خلت جاء الوقت الذى ملكت فيه زمام أمرها وشعرت بقوتها، وكانت الثورة الفرنسية أول محاولة للإنسانية لوضع زمامها بيدها، وكل ما مضى قبل ذلك يمكن أن نسميه كما اطلق عليه روبرت أون «العصر اللامعقول فى حياة الإنسانية»، هذه الثورة أوجدها الفلاسفة، وكوندرسيه وميرابو وروبسبيير أول مفكرين من أصحاب النظريات تدخلوا فى توجيه السياسة وحكم السياسة وحكم الإنسانية بطريقة علمية خاضعة لسنن العقل، وكان أعضاء الجمعية التشريعية جميعا بدون استثناء من تلامذة فولتير، وكانت هذه المحاولة لحكم الدنيا حكما معقولا ونقض النظم القائمة محاولة جبارة جريئة لا نظير لها فيما سلف، وبضرورة الحال لم تخل هذه المحاولة من الشوائب والعيوب، وعلينا أن نؤمل أن الإنسانية مثابرة على السير إلى الامام محتقرة ما يقوله المتشككون، وقد خطت الخطوة الأولى فى سبيل التحرر والطريقة الوحيدة لارجاعها إلى حالتها القديمة السابقة هى هدم العلم والثقافة الفكرية، وهناك قوم يعرفون ذلك ولكن لن ينجحوا فى محاولتهم. ويقول رينان إنه يعرف

العقبات التى تحول دون إصلاح الطبيعة الإنسانية، ولكن الضيقى العقل المطبوعين على حب التسلط يفسرون الطبيعة الإنسانية تفسيرا عجيبا فالطبيعة الإنسانية فى رأيهم هى ما يرونه فى عصرهم وما يريدون أن تظل محتفظة به، ويقول فريق من الناس إن التحسن فى الأحوال الإنسانية ثمرة الدين، وإذا سلمنا بصحة ذلك فإن علينا أن نعرف أن الدين نفسه من أجمل وأقوى ما خلقته الطبيعة الإنسانية، والإستعانة بالطبيعة الانسانية هى آخر حجة فى كل المسائل الاجتماعية والفلسفية، ولكن علينا أن نكون حذرين فلا نقصر الطبيعة الإنسانية على ما نراه من العادات والتقاليد، إنها أعمق من ذلك وليس من السهل الوصول إلى قرارها، ولا يستطيع البصر الكليل أن يراه، وكم من الأخطاء المضحكة فى السيكولوجيا العادية مردها إلى هذا الوهم! إنها نتيجة الجهل العميق للاختلافات الموجودة بين الآداب المختلفة وبين مشاعر الأقوام المختلفين، وقد حاول فريق المحافظين أن يذكروا المجددين بالتاريخ، والطبيعة الإنسانية، وردوا على المصلحين الاشتراكيين فى بادىء الأمر بأنهم يهاجمون ما صنعته العصور المتوالية، وأنهم يأتون بما ليس له

سابق، ويشير رينان إلى الفكرة التى ظهرت فى عصره وهى فكرة أن المجتمع عليه واجبات نحو الفرد والنظر إلى الشقاء الذى يحيق بالفرد باعتباره من عيوب المجتمع وأن المجتمع مسئول عما يعانيه أفراده من بؤس، وهذه الفكرة لا تجعلنا نلقى التبعة على القدر ونحاول جهدنا أن نعمل على إسعاد الإنسانية وتقليل نصيبها من الشقاء، ويستخلص رينان من ذلك أن الإنسانية بدأت تعترف بقدرة العقل الإنسانى على إصلاح المجتمع عن طريق العلم، وليس من المبالغة فى هذه الحالة أن نزعم أن مستقبل الإنسانية متوقف على العلم، وأن العلم وحده هو الذى يمكن الإنسانية من تحقيق أهدافها، ويقول رينان إنه حتى عصره كان الدافع الغريزى والنزوات الطارئة هى المسيطرة فى الدنيا، ولكن سيأتى اليوم الذى يقوم به العقل بذلك مستعينا بالتجربة المستنيرة والتفكير السليم، وسيختفى حكم الدافع العاطفى ويبدو لنا باعتباره همجية صارخة أو عهد أوهام وبدوات كما يفرق المرء بين عهد الطفولة وغضاضة السن وعهد النضج والاكتمال، وستبدو الأحزاب المتنافرة كأنها هولات تتصارع فى عصر مضى وسيعجب الناس كيف كانوا فيما سلف من

الزمان يصفون رجلا مثل تاليران بأنه كان سياسيا قديرا، وهو الذى كان ينظر إلى حكم بنى البشر كأنه لعبة الشطرنج دون أن تكون عنده أى فكرة عن الغاية المقصودة، وبدون أن يعرف شيئا عن فكرة الانسانية . وسيحكم العلم العالم لا السياسة، والسياسة تحكم الناس كأنهم آلة، ومتى بطل أن تكون الإنسانية آلة أختفى هذا النوع من أنواع الحكم، والعلم الذى سيسود يكون فلسفة، ومعنى ذلك أنه يكون علما يبحث غاية المجتمع ويتعرف أحواله، وهردر يقول «فى السياسة الإنسان وسيلة وفى الأخلاق الإنسان غاية» وفى ثورة المستقبل ستنتصر الأخلاق على السياسة. وتنظيم الإنسانية تنظيما علميا هو الكلمة الأخيرة للعلم الحديث وهو مطلبه الجرىء ولكنه مطلبه الحق، ويقول رينان إنه حتى عصره لم يكن للعقل الإنسانى نصيب فى تقدم الإنسانية، وأن ما تحقق من التقدم جاء بعد التعثر وخبط العشواء ولكن العلم سيتولى ذلك ويعمل على تنظيم الإنسانية ليصل بها إلى الكمال، وما تم حتى اليوم من التقدم ليس سوى الصفحة الأولى من مقدمة مؤلف لا نهاية له.

والعلم وحده هو الذى يستطيع أن يقدم للإنسانية تلك الحقائق الحيوية التى لا تحتمل الحياة بدونها ولا يقوم المجتمع بغيرها، وإذا تصورنا إمكان الوصول إلى تلك الحقائق بطريق آخر غير طريق البحث المستأنى أصبح العلم السامي لا معنى له، وأمكن أن يكون عندنا الاطلاع الواسع وحب استطلاع الهواة لا العلم فى أشرف معانيه، وأمسكت الطبائع النبيلة عن أحتمال الاشتغال بالبحوث التى ليس لها افاق ولا مستقبل، والذين يعتقدون أن التأمل الميتافيزيقى والتفكير النظرى يمكن أن يقدما لنا الحقائق الأسمى دون الدراسة العلمية لما هو كائن لابد أن يحتقروا ما يبدو لهم من سقط المتاع ويعتبرونه عبئا ثقيلا يعوق التفكير، والذين يعتقدون أن العقل الإنسانى لا يستطيع الوصول إلى الحقائق الأسمى وأن قوة سامية وحدها قد اختصت برسالة كشف تلك الحقائق يسهمون فى هدم بناء العلم بتجريده مما يكون حياته ويجعل له قيمة حقيقية.

وإذا جردنا العلم من غايته الفلسفية فماذا يبقى له؟ ستبقى له من غير شك بعض التفصيلات التافهة التى تحرك شهية حب الاستطلاع للعقول الباحثة وتتيح

وقتا للتسلية للذين لا يجدون شيئا خيرا منها، ولكن الذين ينظرون إلى الحياة نظرة جدية ويعنون بحاجات الإنسانية الأخلاقية والدينية لا يحفلون بها، وليس للعلم قيمة إلا إذا استطاع أن يكشف ما يعد كشفه وقفا على الوحى، وإذا سلبته هذا الذى يعطيه قيمة أصبح شيئا غثا ونفاية لا تصلح إلا لأن ترمى لهؤلاء الذين يحتاجون إلى عظمة ليقضموها.

والعلم يبدأ بالشك دون أن يدرى إلى أى طريق سيدفع به، ويستسلم للنقد استسلاما تاما، والطريقة اللاهوتية مخالفة لذلك، فهى مناقضة للروح العلمية الحقيقية، ويرفض رينان الاعتقاد بالوحى لأنه ينفى الروح الانتقادية، والروح الحديثة عنده معناها النقد، كما يرفض الاعتقاد بالمعجزات لأنه يراها نتيجة نظرة فكرية إلى العالم باعتباره محكوما بالأوهام لا بقوانين ثابتة، والإنسان البدائى لم يعرف فكرة قوانين الطبيعة ولذلك كان لا يجد غرابة فى المعجزات، ولن تستطيع أن تقنع بالحجة المباشرة الذين يعتقدون بما وراء الطبيعة كما لا تستطيع أن تقنع الهمجى بسخافته الفيتشية، ولو ارتفع العقل إلى مستوى العلم وتغذى بالأسلوب العقلى لرفض الاعتقاد بما وراء الطبيعة دون مناقشة ولا

حجاج وعند رينان إنه لن يتم المفكرون المحدثون عملهم إلا إذا قضوا على الاعتقاد بما وراء الطبيعة كما قضوا على السحر والعرافة والكهانة، ويرفض رينان فكرة التوفيق بين العلم وما وراء الطبيعة، فهو فى رأيه إهدار لكرامة الروح العلمية، فإما إيمان بالعقل بغير تحفظ وإما إيمان مطلق بما وراء الطبيعة، وأعدى أعداء العلم هم هؤلاء الذين يرون أن الحق شيء لا فائدة منه، والذين يسلمون بأن الحق لا تقدر قيمته ويعملون مع ذلك على أن يصلوا إليه بطرائق أخرى غير طريقة النقد والبحث العقلى، والفريق الثانى هم الجديرون بالرثاء لحالهم لأنهم انحرفوا عن الموضع الصحيح للعقل البشرى، ولكنهم مهما يكن من أمرهم يسلمون بوجود الهدف المثالى للحياة وهم قد يقتربون من العلماء ويعطفون على جهودهم، أما الذين يزرون بالعلم ويزدرون الشعر ويحتقرون الفضيلة لأن روحهم الوضعية لا تفهم سوى الأشياء الفانية فهؤلاء لا شأن لنا معهم، وهم من عالم غير عالمنا، ولا يستحقون أن ندخلهم فى زمرة بنى الإنسان، وهم الملحدون حقا لأن الملحد هو السطحى الذى لا يبالى بغير مصلحته وإشباع شهواته، والمستقبل مع هؤلاء الذين ينظرون إلى الحياة نظرة جدية ويرجعون

إلى الأساس الخالق للحق، وهو الطبيعة الإنسانية، وستظل الإنسانية دائما جادة مؤمنة متدينة، والحمقى الطائشون الذين لا يصدقون بشيء لن يكون لهم المكان الأول بين البشر، والثقافة الفكرية والبحوث النظرية وبالاختصار العلم والفلسفة تملك أحسن الضمانات، وهي حاجات الطبيعة البشرية نفسها، فالإنسان لن يعيش بالخبز وحده، والبحث النزيه عن الحق والجمال والخير وتحقيق العلم والفن والآداب حاجة من ألزم حاجات النفس كحاجة الجائع إلى الغذاء والظمآن إلى الماء.

وليس من الخطأ كل الخطأ أن يطلق اسم العلم على ما يسمى فى العادة فلسفة، ويقول رينان إنه يروقه أن يلخص حياته فى كلمة واحدة وهى أنه يتفلسف، ولكن لما كانت لفظة فلسفة فى استعمالاتها الدارجة تدل على جانب جزئى من الحياة الداخلية وهو الحياة الذاتية للمفكر المتفرد فإنه لذلك يفضل استعمال كلمة «المعرفة» حينما يأخذ بوجهة نظر الإنسانية، وعنده أنه سيأتى اليوم الذى يغيب فيه الإيمان من نفوس البشر وتحل محله المعرفة، وستعرف الإنسانية حينذاك الأشياء المعنوية كما تعرف الأشياء الطبيعية المادية، ولا تترك

حكومة العالم للمصادفة والدسائس وإنما تخضعها للعقل الذى يقلب الأمور على وجوهها المختلفة ويتخير الخطة المثلى، وغاية العلم هى أن يعرف الناس قانونه وغايته وأن يبصرهم بالمعنى الحقيقى للحياة، وأن يفيد من الفن والشعر والفضيلة وكل ما يجعل للحياة قيمة.

وقد نسأل هل يستطيع العلم أن يقوم بكل هذه الأمور العظيمة المدهشة؟ ويرد رينان على هذا التساؤل بقوله إنه إذا عجز العلم عن القيام بذلك فليس هناك شيء يستطيع أن يقوم بها، وتظل الإنسانية طوال الآباد جاهلة معنى الأشياء، وإذا كانت الأديان قد استطاعت أن تؤثر تأثيرا صالحا فى سير الإنسانية فما ذلك إلا لأنها كانت مشوبة بالعلم أى بممارسة العقل البشرى.

وإذا نظرنا إلى ما أنجزه العلم دون أن ننظر إلى المستقبل سألنا أنفسنا هل يستطيع العلم أن ينهض بالبرنامج الذى أشير إليه؟ إن أكثر ما قام به العلم حتى العهد الحديث هو الهدم، فقد جرد الطبيعة من سحرها ولغزها وأحل الحساب والقياس حيث كان الخيال يبث الحياة وينطلق حرا، وقضى على تلك الأساطير والخرافات الشعرية التى كانت تنعم بها الناس،

وأفقدهم الإيمان المريح الذى لا يمكن أن يقوم مقامه شيء آخر فى النفوس، وأين الرجل الذى بعد أن أسلم قياده للعلم لم يلعن اليوم الذى ولد فيه فكريا والذى لم يحن إلى بعض الأوهام الأثيرة المفقودة؟ ولكن هل معنى هذا أن العلم يجرد الحياة من ألوانها ويعصف بالأحلام الحسان؟

لو كان العلم كذلك لكان شرا من غير شك ولكنه ضرورة لا نلوم من أجلها أى إنسان، وضيق بعض الطوائف بالعلم مما يضحك لأنه يدل على أنها تتوهم أن هناك سبيلا آخر لتقدم الإنسانية، وكأن الإنسان حر فى اختيار الاعتقاد بما يحبه ويؤثره ومن المستحيل أن نمنع العقل من تناول كل ضروب الاعتقاد، وهو مرغم على إعلان أنها لا تكون الحق المطلق، والعلم يقضى على الأوهام والأحلام ليحل محلها حقائق أسمى منها، ولو كان العلم سيظل حيث هو لكان علينا أن نخضع لأحكامه ونأسف على أنه هدم ولم يبن وأيقظنا من نوم مريح دون أن يلطف أثر الواقع فى نفوسنا، ولكن ما أعطاه لنا العلم لا يكفينا، ولو أن القليل من العلم خير من الكثير من الأوهام والأخطاء، وإذا نظرنا إلى الحقائق التى أكدها العلم فى تاريخ الشرق القديم

وجدناها قليلة بالقياس إلى الأساطير والخرافات الكثيرة الذائعة، ولكن العقل الناقد يضحى بالأحلام المحبوبة، والقليل المعروف من العلم سيزداد وينمو، والعلم يحلل الأشياء ويشرحها ويفقدها بذلك جمالها، ولكن هذا التشريح والتحليل يصلان بنا إلى معرفة جمال أسمى ونظام أعلى لا يصل إليه الاختبار السطحى والمشاهدة العاجلة، والعالم الواقعى الذى يكشف لنا العلم أسمى من العالم الخيالى الذى تلفقه لنا الأوهام أو يخلقه لنا الخيال، والعلم سيتابع تقدمه دون أن يتردد فى اكتساح ما يعترض طريقه، ومن الخير أن نفسح له الطريق ونزيل من أمامه العقبات.

ومن الخطأ النظر إلى العلم باعتباره مجرد وسيلة لاشباع حب الاستطلاع أو إرضاء غرور الإنسان، كما أنه من الخطأ اعتبار الأدب ملهاة وتسلية، والهواة قد يؤدون خدمات للعلم، ولكنهم ليسوا علماء ولا فلاسفة، لأنهم يلتمسون فى العلم المتعة كما يسعى صاحب المصنع وراء الربح، والأدب أو الشعر أو العلم الذى يقصد به التسلية ليس من حقه أن يدعى أدبا أو شعرا أو علما.

وغاية الإنسانية هى تحقيق أسمى ثقافة إنسانية ممكنة أى أكمل دين عن طريق الفلسفة والفن والآداب والعلم قبل كل شىء وفى إيجاز بالوسائل جميعها الكفيلة بتحقيق المثل الأعلى الكامن فى طبيعة الإنسان، ولا يمكن تحقيق هذه الغاية إذا ظلت الحضارة محصورة فى عدد قليل من الناس مهما تبلغ من السمو، وسنصل إلى هذه الغاية حينما تصبح الإنسانية جميعها على حظ وافر من الثقافة، ولكل إنسان الحق فى الوصول إلى هذه الديانة الحقة، ومعنى ذلك أن كل إنسان يجب أن يجد فى البيئة التى يولد بها الوسائل الكفيلة بتمكينه من بلوغ الكمال، وهذا الكمال يستلزم درجة معينة من المستوى المادى المناسب ولذلك يجب أن يوفر للناس ما يفى بحاجاتهم.

مختارات من الكتاب

يقول رينان فى المقدمة «كان لسنة ١٨٤٨ تأثير بالغ فى نفسى، وحتى ذلك الوقت لم أفكر قط فى المشكلات الإجتماعية، وهذه المشكلات التى بدأت من الأرض وأخافت الناس استولت على تفكيرى وأصبحت جزءا من فلسفتى.. وقد شعرت بالحاجة إلى أن

ألخص في مجلد عقيدتي الجديدة التي حلت في نفسي مكان الكاثوليكية المتهدمة، واستغرقت كتابة هذا الكتاب الشهرين الأخيرين من سنة ١٨٤٨ والأشهر الأربعة الأولى من سنة ١٨٤٩ وكان حلم الشاب البرىء ولكن الطموح هو أن يقدم هذا الكتاب الضخم للطبع، وفي ١٥ يوليو سنة ١٨٤٩ أعطيت فصلا منه لمجلة الفكر الحر ومعها تعليق مفاده أن الكتاب سيظهر بعد أسابيع قلائل وكان هذا إسرافا في الغرور، وفي الوقت الذى كتبت فيه هذه السطور فكر المسيو فيكتور ليكلارك في أن يعهد إلى مع صديقي شارل داريمبرج بمهمة البحث في مكتبات إيطاليا العامة عما يتصل بتاريخ فرنسا الأدبى وبرسالة كنت بدأت كتابتها عن مذهب ابن رشد، وهذه الرحلة التى استغرقت ثمانية أشهر أثرت في عقلي تأثيرا بالغا، فالجانب الفني للحياة الذى كان حتى ذلك الوقت لا يشغل مكانا في تفكيرى كشف لى روعته وبهجته.

ونوع من النسمات البليلة أراحت نفسي، واختفت الأحلام التى راودت نفسي سنة ١٨٤٨ إذ استبان لى أنها غير ميسورة التحقيق، وصرت مدركا للضرورات التى يحتمها المجتمع الإنساني، واستسلمت لتلك الحالة

التى لا يجىء فيها مقدار صغير من الخير إلا محفوفا بشر كثير لا مفر منه، والتى فيها نستخرج كميه لا تكاد يحس بها من العطر من مقدار ضخم من المواد الفاسدة.

ورضت نفسى على قبول الواقع، وحينما عدت من رحلتى وتناولت الكتاب الذى كتب منذ إثنى عشر شهرا وجدته غير خال من القسوة والتشدد فى الاعتقاد والطائفية والصلابة.

وكان تفكيرى فى صورته البدائية ملقى على كتفى كحمل بارز من كل النواحى ومتشابك فى كل جانب وكانت أفكارى الشديدة التحكم بحيث لا تصلح للتحدث عنها لا تزال غير صالحة لنشرها مجموعة، وألمانيا التى كنت تلميذا لها بضع سنوات جعلتنى على مثالها وذلك فى نوع من الإنتاج لم تلمع فيه، وهو تأليف الكتب، واقتنعت بأن القراء الفرنسيين سيجدون الكتاب غير مستساغ ولا مقبول.

واستشرت أصدقاء عديدين وبخاصة أوغسطين تيرى الذى كان يعاملنى كولده، وقد نصحنى هذا الرجل الفاضل بأن لا أبدأ حياتى الأدبية بهذا الحمل

الثقيل فوق رأسى، وتوقع له الاخفاق التام عند جمهرة القراء، وأشار على أن أتقدم شيئا فشيئا، وأن أسهم فى تحرير مجلة العالمين وجورنال دى ديبا، وذلك بنشر فصول فى موضوعات مختلفة أتخفف فيها من هذه الأفكار التى تخيف القارىء إذا قدمت له مكدسة فى كتاب، وفى هذه الحالة لا تزعج القارىء جرأة الآراء التى احتواها الكتاب، والناس فى العادة تقبل جرعات صغيرة مما يرفضون أن يبتلعوه برمته دفعة واحدة.

وبعد ذلك بقليل شجعنى المسيو دى ساسى أن أفعل الشىء نفسه، وحينما كنت أقرأ عليه الفصول التى كتبتها لاحظت ابتسامته عند سماع أى جملة تتضمن الاحترام أو التلطف.

والانقلاب الذى حدث بعد ذلك بقليل أكد العلاقات بينى وبين مجلة العالمين والجورنال دى ديبا لنفورى من هؤلاء القوم الذين قابلوا بالابتسامات الساخرة علامات الحزن التى بدت على المواطنين الأمناء، فى اليوم الثانى من ديسمبر، وشغلت بدراسات خاصة وبالسفر وبكتابى عن أصول المسيحية ولم يترك لى ذلك وقتا للتفكير فى غيرها مدة خمس وعشرين سنة، وصممت على أن تقدم

أصول الكتاب للطبع بعد موتى وأنه بذلك يدخل السرور على قلة مختارة من المستنيرين، وربما ينجح فى توجيه التفات العالم الذى يحتاج الموتى إليه كثيرا فى ذلك التنافس غير المتساوى الذى يفرضه عليهم الأحياء فى هذا الصدد.

ولما تجاوزت حياتى الأمد الذى كنت أتوقعه لها اعتزمت نشر الكتاب، واستهوانى الأمل فى أن بعض الناس ستقرأ هذه الصفحات القديمة الأمينة وتجد فيها ما يفيدها، وأن الجيل الناشىء بوجه خاص الذى يبدو لى أنه ليس واثقا من الطريق الذى يسلكه سيسره أن يرى كيف واجه نفسه شاب جد صريح وجد مخلص، والشبان يوثرون مؤلفات أمثالهم من الشباب».

وفى الفصل الثالث والعشرين يتحدث رينان قائلا «فى ذات يوم زرت ذلك القصر الذى تحول إلى متحف والذى كتب على واجهته بروح الاختيار الواسع الحدود «لكل مفاخر فرنسا» وطفت برواق المعارك وقاعة المارشالات وقاعات الغزوات المختلفة، ورأيت تتويج الملوك والأباطرة والحفلات الملكية والاستيلاء على المدن والأمراء والسادة العظام ووجوها عليها مظاهر الحماقة

أو القحة، وفجأة سألت نفسى «أين مكان النبوغ» فهنا رجال ولدوا للعظمة مختالون ليس لهم أفكار ولا أخلاق ولم يفعلوا شيئا لخير الإنسانية. ولكن أين رواق القديسين ورواق الفلاسفة ورواق الشعراء ورواق العلماء ورواق المفكرين؟ إنى أرى لويس الرابع عشر وهو ينشىء ما لا أدرى من نظام النبلاء ولا رأى فنسنت دى بول وهو ينشىء نظام البر الحديث، وأرى حوادث البلاط التى تتفاوت قلة أهميتها ولكنى لا أرى أبيلار فى وسط تلامذته يبحث مشكلات اليوم على جبل سينت جانفييف، وأرى قسم ساحة التنس ولا أرى ديكارت وهو متوار فى حجرته يقسم إنه لا يترك بحثه حتى يكشف الفلسفة الحقيقية، وأرى الوجوه الدالة على الفظاظة والسوقية والتى ليس فيها أثر للمثالية ولا أرى جيرسون وكالفن وموليير وروسو وفولتير ومنتسكيه وكوندرسيه ولافوازييه ولابلاس وشينييه، وهناك بوسويه وفينيلون ولكن بوصفهما من رجال البلاط لا بوصفهما من النابغين، فهل ما فعله روسو ومنتسكيه لمجد فرنسا أقل مما فعله أمثال هذا القائد المغمور أو ذلك الرجل من حاشية الملوك الذين نسيت أسماؤهم منذ زمن طويل؟ فقلت لنفسى لقد قضى الأمر وحرم النبوغ من ميراثه،

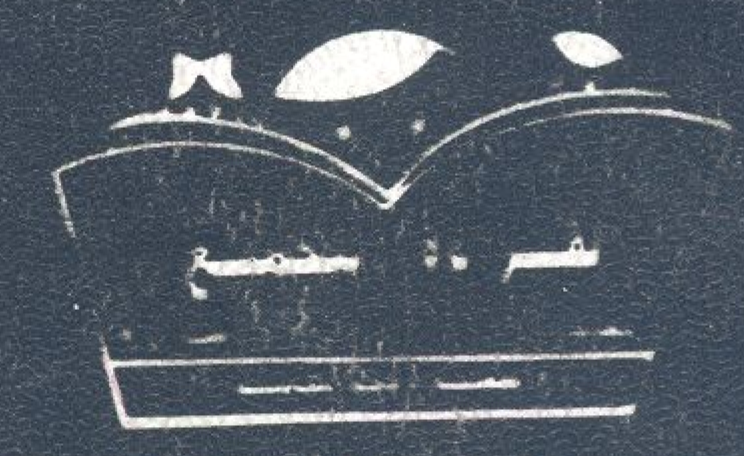
ولكن لا ... فان فوق الشرفات المتساوية النسق فى متحف القصر يرتفع البناء الفخم المتوج بشارة المسيح، فادخل وخبرني هل هناك فخار يعادل فخار هذا الجالس هناك، ونابليون الذى كان اسمه يصنع المعجزات ليس جالسا على عرش فوق الهيكل فشكرا لله! إن المكان الرئيسي محفوظ للنبوغ، لقد كان القصر للآخرين أما هو فله المعبد.

وفخر النبوغ هو المجد الحقيقى فى نظر الفيلسوف، ومن المسموح به أن نؤمل أن الفلاسفة والعلماء سيرثون المجد الذى اضطرت الإنسانية فى أوقات الوحشية والصراع أن تخص به المغامرات الحربية، ولا أستطيع أن أوافق على تلك المحاولة المبتذلة لانتقاص الغزاة الفاتحين، ولابد أن يكون الإنسان سطحى العقل ليرى فى الإسكندر رجلا ملتاث العقل خرب آسيا، فالحرب والغزوات ربما كانت فى الأزمنة السالفة وسيلة التقدم، ولم تكن هناك وسيلة أخرى لتقريب البشر بعضهم من البعض وتحقيق وحدة الإنسانية، وماذا كانت تكونه الإنسانية لولا غزوات الإسكندر وفتوحات الرومان؟ ولكن حينما يسود العقل في الدنيا يصبح أعظم الرجال هو الذى قدم أكبر خدمة

للأفكار والذى برز فى البحث والذى تفوق فى الكشف، ومن بادىء الأمر كان للموهبة والنبوغ القيادة فى كل شىء (المسيحية، والحروب الصليبية والاصلاح والثورة) ومع ذلك ظل النبوغ متواضعا غير مفهوما ومضطهدا، ونابليون لم يقم الدنيا ويقعدها مثل لوثر وبرغم ذلك ماذا كان لوثر طوال حياته؟ كان راهبا فقيرا مشلوحا من وظيفته لم يستطع الفرار من أعدائه إلا لأن بعض صغار الأمراء راقهم أن يضعوه تحت حمايتهم، وإذا كان هناك شىء يثبت قوة الفكر الصميمة الكامنة فى العقل البشرى فهو أنه برغم ما يعانيه المفكرون من عنت الحياة حتى فى العصر الحاضر فإنه لا يزال هناك رجال يقبلون أن يقفوا حياتهم فى نزاهة على طلب الحق، وحينما يفكر الإنسان فى أن الحركة الفكرية جميعها التى تمت إلى يومنا هذا قد قام بها رجال بائسون معذبون أرهقتهم المحن الداخلية والخارجية وأننا نحن أنفسنا نحافظ على تلك التقاليد بقلب ملتاع وفى وسط المخاوف والآلام أقول حينما نفكر فى ذلك كله يزداد احترامنا للطبيعة الإنسانية القادرة على طلب المثالى بمثل هذا الجهد المبذول.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة



بسعر رمزي عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

